قضية الكتاب العربي

بقلم فؤاد الشايب

اصدقائي في اتحاد الناشرين (*)

يشرفني حقا ان اكون ضيف مائدتكم ، في هذه الليلة من ايام الكتاب الذي تبسطون لـــه اكفكم وسواعدكم ، وتمنحونه من نفوسكم عظيم الولاء ، وجميـــل الوفاء . ويسعدني في الوقت ذاته ، ان اجد بجانب هذه المائدة السخية الطيبة منبرا للكلمة ، ومجالا لتحية ، ومتسعـا لحديث سريع عن سيد هذه المائدة ، وجامع شملها وموقد شموعها : الكتاب .

وان يكن من تقاليد الخطب ، في ختام المآدب ، ان تكون خطبا مقصوصة محفوفة ، كثيرة الذوق بقصرهـا ولطيف مجاملاتها ، فارجو الا تكون كلمتي قليلة الذوق من جهة الطول . وان كنت من جهة المجاملة ، لم اتوخ لها ابدا ان تكون مشرقة كتبادل الانخاب وقرع الكؤوس ، وتذوق الحلاوات .

ايها الاخوات والاخوة :

بالامس حييت مجلس المتن الشمالي للثقافة فـي مهرجان الريحاني،واليوم احيي اتحاد الناشرين فيمهرجان الكتاب .

ذاك مهرجان لاحياء التاريخ ، وهذا مهرجان لتنوير المستقبل . ذاك لقاء لتكريم نضال ، وهذا لقاء لتكـــريم الياذات النضال . وما النضال بلا الياذته ســوى دماء مهدورة ، وجلجلات محشورة ، وحركة قطعان بشرية ، تساق في عدمية الدهور،ويستوي فيها الابطال والمجرمون.

بالامس في بيروت ، واليوم في بيروت ايضا . فكم لكم من يد ، يا اصحاب القناديل ، في هذه المدينة المنورة، وكم لكم من فضل ، على ماضي الحرف العربي ، وعلـى مستقبل الكلمة العربية .

من حقكم على الكتاب،وتاريخ اشراق الكتاب فيلبنان وفي ديار العرب، ان نذكر لكم، ايها السادة الناشرون، في يوم احتفالكم بالكتاب ، ودعوتكم اليه ، اجمل ما تذكرون به ، واطيب ما تطيب به سيرتكم : وهو انكم ادباء اهل ادب ، علماء احفاد علم ، مثقفون اصحاب رسالة في نشر الثقافات . بعضكم نشأ الحرف بين انمليه صبيا ، وبعضكم نشأ الحرف بين شفتيه فتيا ، فمنكم من رفعته عصاميته من وراء المحابر ، الى حيث تدور الكلمة في مدار الشمس، ومنكم من هبط من دوحة عريقة في الادب والفكر الى حيث يتصل بصناعة حديثة شريفة تعز منازل الادباء والمفكرين. وليس من دار ــ كما اعلم ــ الا وكان هوى الكتاب فيها وراء صناعة الكتاب ، ونفح الطيب قبل نشر الطيب ، فسبحان من خلق النحلة ، جارسة زهر ثم صانعة شهد ، وسبحان من نفض حبة الادب سنبلة في حقولكم ، ومن رمى السنابل غلالا في بيادركم .

... حمامة برية هبطت على بيدركم ، اذ لوحتم لها بمنديل ، فافرخ روعها ، وطاب مقامها . فشكرا لليد التي حيت ، وللمنديل الذي لوح بوعد المحبة . وليطب البيدر لاهله ، وليبارك الله غلال الزارعين الحاصدين .

ايها السيدات والسادة :

بعد التحية اقول : لكل بطولة مأساة . ولكل قضية جليلة ، وجه منور ، واخر في الظلام ، وصناعة الكتاب في المحيط العربي لمن خبرها وعاناها ، صناعة شقية لا يتصدى لها الا كل من القى به شوقه الى معاناة الشوق ، ووضعه طموحه في المسالك الخشنة التي يصعد فيها طمـــوح المغامرين .

قضية الكتاب العربي في وجهها المنور ، وفي جمالها الشعري ووصفها البطولي، بيدر وغلال ، ولذة سعي ورزق حلال ، ولكنها في وجهها الغارق فـــي الظـلال مأساة (سيزيفية) رهيبة لا يبررها سوى اذعان البطولة لمصيرها في لعبة الصخرة الازلية .

قضية الكتاب العربي في مدى الرؤية الراضية ، والواجهة الفاخرة ، صورة جميلة كصورة الحرف الكحيل، والورق الاسيل والغلاف المضمخ بطيوب الجنة ، يعرض في الواجهات ، كما تعرض ازياء الغانيات ، بينما القـراء الملهوفون دونها في اذناب مصفوفة ، ينتظرون دورهـم لينالوا نسخة ، او يلتمسوا بركة ، او يسرقوا من سارق النار فكرة .

اما قضية الكتاب العربي بوجهها المغيب فـي ظلام العصر ، ومأساة الجيل ، فليست سوى صورة القنديل الشاحب ، المعلق في سقف كوخ معتم ، زواياه محشورة برؤوس بشرية رسمت بفحم الجهل والغباء ، ولا شأن لها سوى ان تلعن النور وتبصق على القناديل .

قضية الكتاب العربي في هذه الرباع المظلمة مـن المحيط العربي ، قمر دائم الخسوف قلامة منه للفضاء الحر ، وكل بقيته الباقية في ظلام بطن الحوت . حـول القلامة يتحلق جمهور ضئيل، كأنه يصطلي في ليلة مقرورة

(*) نص الكلمة التي القيت في احتفال اتحاد الناشرين في الشهر الماضي بمناسبة اسبوع الكتاب .

حزينة . وفي بطن الحوت الرهيب ، كل الصيد وكل القضية ، وكل ذلك السواد الاعظم من الجماهير العربية، حيث الامية سلطان ودولة ، وقضاء مبرم .

في الجانب المنور من الحياة الجميلة ، يوقظ الناس باجراس الصباح ، ومآذن الفجر ، وفي الشطر المغيب في ظلام الدهور ، لا يزال الاحياء يهربون الحوت آكل القمر ، بقرع الطبول ، ونحاس المطابخ .

ان الجانب المنور من حياتنا الفكرية شريط دقيق على هامش الحياة يسلكه السالكون وكأنهم على صراط . اما الكتلة المظلمة من حياتنا ، فتكاد تكون معظم حياتنا .

وهل سر بعد ، ان الكتاب العربي يعيش في محيط تبتلع الامية فيه سبعين حتى الثمانين من اهله وبشريته، ويتحرك الكاتب العربي والناشر العربي في جمهور الخمسة بالمئة من العشرين غير الاميين ، في ابعد تقدير المتفائلين. فاذا باع الكاتب من كتابه ، عندما ينفخ القدر الرحيم في حظوظه اربعة الاف نسخة ، خلال اربعة اعوام ، لا ادري اية نسبة يكون قد حقق . ولا ادري اي رزق بلغ ، واية رسالة ابلغ، وهو يذري هذه الحفنة على امة الثمانين مليونا.

فليست مأساة الكتاب ان قد قامت دونه الحدود ، في مدى اللسان العربي ، وتألبت عليه فروض ادارة وسياسة ، ومال ، فجعلته في بلاد امته مسافرا في محجر الغرباء ، وبين بني جنسه ، متشردا في معزل المشبوهين، بلا جنسية ولا جواز . بل مأساته من قبل ، انه نطفة في رحم عقيم ، وبذرة في بلقع مرمل . نوره سري كمصباح قرصان في قبو سفينة مهربة . او كنور الحباحب، يرسم الومضة على لوح الليل ، وسرعان ما يلعقها لسان الظلام .

قلت انني اتحدث عن الضفة المظلمة ، حيث يغرق الوجه الاكبر من القضية . فلا ترموني بالتشاؤم وسوداوية المزاج . اذ كل ما قلت في الضفة الموحشة هذه ، انتزعت من قيثارتي اوتار الغزل ، ومضرب الانامل على الاحلام .

ان في مأساة الكتاب والثقافة عامة ، ما هو اشد هولا ، عندما نعلم باليقين العلمي الاجتماعي ، ان الامية تغزو الادمية المتعلمة نفسها كما تغزو الرمال كمران الصحراء ، وكما يحيل السرطان دم مرضاه الى ماء ، لان الامية كالوباء تسيطر على المجتمعات الموبوءة وتسود عقلية الاميين . فكيف بها اذا كانت وباء اكثريا . وكيف بها اذا نيطت بارجلها الساحقة اعنة السيادة !

***

لقد رأيت لا في جحيم دانتي ، منذ سبعة قرون بل في جحيم القرن العشرين ، اميين ينهشون جماجم المتعلمين على ضفة النهر الاسود ، ويحيلونها الى قواقع فارغة . فسألت فيم عذابهم، فقيل هذا جزاء من يتمردون على شريعة الغاب السوداء . فليعودوا اليها طينا وترابا .

واذ رأيت اخرين ينجون بانفسهم من بؤرة العذاب، على شبه قشة عائمة ، او على دفة سياسية ملائمة ويدنون من سدة الديانين ، حيث تنجر عظامهم ارجلا لكراسي السلطان ، واضلاعهم مراوح في ايدي الخصيان ، هتفت: من هؤلاء المساكين ؟ قيل هم المتعلمون المحظوظون الذين نجوا بجماجمهم من عذاب النهر الاسود .

فان لم تصدقوا ايها السادة ، منطق هذه الرموز ، وقلتم هذه قصص خيال ومحال ، فاشهدوا ، رعاكم الله، ان الواقف امامكم ، هو احد الناجين المحظوظين ، ليصبح منذ ربع قرن احدى الارجل في كراسي مستودعات السلطان .

... فصلوا على ارواحنا .

ايها الاخوة في اتحاد الناشرين

عندما اتحدث عن الامية العربية ، انما اتحدث عن مأساتكم ، واضع الاصبع على جرحكم ، لاشير الى المغامرة الكبرى التي تدفعون في مجهولها مصير الكتاب العربي. ويبدو احيانا ، انكم كالكباش التي تنطح في صخرة المستحيل .

اننا نعلم اية آلية حربية هيأتموها لغزو القارىء المجهول ، وفتح اسواق الكتاب العربي : اكثر من مئة دار نشر ، واكثر من مئتين وخمسين مطبعة حديثة ، في هذه المدينة المدججة بسلاح السلام تحت قيادتكم الجريئة ، وطموحكم الفاتح . ولكن حرث النهر الاسود بجوار الغابة السوداء ، ليس من استراتيجية السلام بنشر الكتاب وحمل غصن الزيتون . بل لا بد من حشد حديد الدولة، في حرب معاقل الامية الممتنعة وفتح مجاهلها .

ان تلك المجاهل لا تمتنع على الكتاب فحسب ، بل كثيرا ما تلقفت حركات الاصلاح ، والثورات ، بله الافكار والانظمة والشرائع واحالتها الى مثل دبيب النمل فوق ترابها ، ومثل سحيق الفحم في انهرها ، ومثل الفطور السامة في جذوع اشجارها .

فكم مرة ظهرت الامية حوتا على صفحة الموج فقلبت المراكب والراكبين . وكم مرة فتحت كالموجة الغادرة صدرها للعابرين فاستقروا كأنهم آمنون ، واذ بها تطبق عليهم وتهضم مسيراتهم . كم مرة اسكروا الامية بخمرة السياسة علاجا او شرابا ، فاقبلت عليهم بنشوة غامرة ، وانقلبت عليهم بوحشية مدمرة . كم مرة اكلت شعاراتها ورجالاتها ، كما تأكل السعالي بناتها .

ان غريزتها غريزة جريمة ، وسجيتها سجية براءة. -

في البحرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي

فكم مرة اكلت وشربت وزنت ومسحت فمها وقالت ربي لم آت اثما .

ومثلما ان الامية الضروس الهلوك لا تؤخذ بكتب الناشرين فهي كذلك لا تروض بسيوف الحاكمين ، او بخمور السياسيين . فقد يثيرها الكتاب فتغدو اشد حرونا وجموحا بفعل رد الفعل . وقد يذلها السيف فتغدو اكثر سلبية واستهتارا وبلادة . ولن تفعل خمور السياسة فيها ، سوى نفخ عروق الجنون في غرائزها الجائعة .

ولا يحسبن السياسيون ، ان هناك في كيمياء السياسة خمرة رديئة ، وخمرة جيدة . فكل شراب ودواء ان الاديان الكبرى ، تحولت في احشاء الامية ، الى تفاهات في هذا المصنع الجرثومي يستحيل الى جراثيم . حتى وضلالات ، وقناعات مريضة ، انعدم معها اجمل ما في الاديان من قيم ثقافية واخلاقية .

كل محاولة ، عبث ، وليس الا بمحاريث الدولة ، بكل ما في الدولة من حديد المحاريث ، تقتلع الامية من جذورها ، وتنبش ارضها ، وتذري في الرياح الاربع اثارها .

والدولة التي لا تستطيع ان تجعل من سياسة حرث الامية حرثا ، اول مفهوم من مفاهيم قناعاتها الاساسية التأسيسية ، انما هي دولة تسودها عقلية الاميين حقا وفعلا . هي دولة اسلمت قيادها للديانين الرابضين على ضفة النهر الاسود .

فليست الامية في المجتمع العربي المعاصر ، جانب المأساة المروع في حياة الكتاب والمثقفين ، والنشر والناشرين ، فحسب . بل هي بالواقع مأساة الحكم العربي ، والسياسة العربية ، وكل حركة صادقة من حركات الاصلاح والثورة .

فاسمحوا لي ان اضع امامكم ايها الاصدقاء ، وعلى مائدة اسبوع الكتاب ، فكرة ميثاق ثقافي عربي ، مقدمة لاتحاد المثقفين والناشرين العرب ، يعلن به رجال الفكر والمعنيون بصناعة الكتاب العربي ، اول ما يعلنون ان الامية ، اضخم امراض الامة ، وان حربها اول واجبات الدولة ، ووظائفها الاجتماعية والاقتصادية ، والثقافية ، اطلاقا .

اضع على مائدتكم ايها الاصدقاء فكرة ميثاق عربي يتقدم انشاء (اتحاد للمثقفين والناشرين العرب) تقرع بمجموع قبضته ابواب الدولة المغلقة دون قضيتها الكبرى ، ودون تسهيل نشر الكتاب كاداة اولية اساسية من ادوات القضية .

واني لاذكركم ، ولعلكم ذاكرون ، ان قد هلت وتحققت فكرة (مؤتمر الادباء العرب) منذ ثلاثة عشر عاما في لبنان ، فعسى ان تتحقق فكرة (اتحاد المثقفين والناشرين) في لبنان ايضا بما توافر لكم من اسباب الاتصال ، وكفاءات الممارسة العملية لشؤون صناعة الكتاب ونشره .

وان يكن قد تحول (مؤتمر الادباء العرب) الى مجرد عكاظ ادبي بلاغي ، يتجمع له الادباء ، للتعارف فيما بينهم ، في احسن حالاته ، ولم تكن توصياته سوى رموز وشكليات . فعسى ان يتحول (اتحاد المثقفين والناشرين) ، فوق ركام التجارب والمحاولات ، الى قوة جديدة ، دائبة قارعة ، تحرك ضمير الامة التي وضعت ميراث اضخم الحضارات بين ايدي اتعس الاميات .

بل عسى ان يكون الميثاق وما يتلوه درسا علميا واجتماعيا للمعضلة العربية الاولى ، يوزع معه في الافاق القريبة والبعيدة صرخة المأساة ، ويرسل الى جبهة الغابة السوداء ، شارة جديدة من شارات التحدي . وستكون هذه المرة ، شارة الكتاب العربي الذي لا يقبل ان تسوده عقلية الغابة السوداء ، ويرفض دينونتها .

انكم ايها الاصدقاء ، لا تفعلون ذلك ، لاجل الكتاب وحده ، وهو بحد ذاته ، هدف من اعز الاهداف ، بل تفعلون ذلك في سبيل امة لم يبق كتابها بيمينها ، عندما تدعى امم الارض وكل كتابه بيمينه .

ايها الاخوة

مهما يكن من فكرة الميثاق والاتحاد ، وانتم بطبيعة معاناتكم ، وبطبيعة الصلة الرائعة بينكم وبين اصدقاء الكتاب تؤلفون هذا الاتحاد ، على الصعيد اللبناني تأليفا عمليا واقعيا تهنأون عليه وتغبطون لاجله ، فانني لست هنا الليلة ، بينكم ، الا للتحية ، ورد التحية بمثلها . ولا استطيع احسن منها .

فشكرا لكم . وشكرا لكل ما تفعلون ، وتبذلون وتعانون ، في سبيل جمهور الكتاب العربي ، وعزة اهله .

فؤاد الشايب

طالعوا كل شهر

المجلات الثقافية اللبنانية

الاديب

الحكمة

العرفان

العلوم

فهي تحمل اليكم النتاج الفكري الرصين

والابحاث القيمة باقلام خيرة الكتاب والادباء